

المحاضرة الثالثة: الاتجاه التاريخي في الرواية العربية

الدكتورة زهرة خالص

1- علاقة التاريخ بالخطاب السردي:

إذا كان الخطاب الأدبي يتسم بالتشويق ويحدث المتعة في النفس، فإنّ الخطاب التاريخي يسعى إلى تقديم حصيلة من النتائج المترتبة عن وقائع معينة وأحداث محددة جرت في زمن مضى. فخطاب التاريخ يرتبط أساساً بالماضي الذي يشده إليه ويبعده عن الغلو بخياله إلى استشراف آفاق المستقبل والتنبؤ بخباياه ومفاجآته، وهو الشيء الذي يهدف إليه خطاب الأدب قبل كل شيء.

فالتاريخ⁽¹⁾ يتمثل في البحث والتنقيب، وهو علم قائم بذاته له قواعده وأصوله وأدواته، يتجلى برؤية صادقة أمينة للأحداث التي يسردها كما جرت على أرض الواقع والحقيقة إلى جانب هذا التاريخ أو من عمقه، ينهض نوع آخر منه مغيّب ومسكوت عنه في كل كتب التاريخ التي تعنى بالحوادث وما شاكلها من الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها منها: "التاريخ هو الزمان، والزمان ليس منفصلاً عن الإنسان، الإنسان بمفرده تاريخ في جوهره، له بداية ونهاية"⁽²⁾. ثم إنّ خطاب التاريخ يتسم بالتقريرية المباشرة الجافة، وهو وإن حاول أن يكتب قصة أو حكاية، أو رواية، فإنه يهدف أساساً إلى تقديم النتائج المترتبة عنها والمبلورة مباشرة في ذهنه دون إعطاء أي اعتبار لعنصر التشويق والمتعة في الموضوع. ونستنتج من ذلك أنّ خطاب التاريخ يوجب الصدق والكذب. أما ظاهرة الامتزاج والانجذاب بينهما فرمما نعود بجذورها إلى عهد "هيرودوت" "Hérodote"، حين رأى أنّ كلا من الأديب والمؤرخ كليهما لم يلتزم بحدوده، فالمؤرخ يرى أن الأديب لم يكتب بأدبه، ويرى الأديب أن المؤرخ لم يحترم تاريخه وتجاوزته إلى غيره، وهو ما يسميه رشيد بوجدرة: "بالإغراء المتبادل"، أي ثمة إغراء

(1) التاريخ والتورخ وهو لفظ مشتق من أَرخ يؤرّخ تورخاً: أي تعريف الوقت أو تحديد يومه. وهو العلم الذي يُعنى بتسجيل جملة الأحداث والأحوال التي يمرّ بها كائن ما، ويصدق على الفرد والمجتمع والظواهر الطبيعية ونحوها، مثل (تاريخ العالم)، و(تاريخ الإسلام)، و(تاريخ العرب) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مجلد 3، دار صادر، بيروت، لبنان، ص 4.

(2) ينظر: سعيد يقطين، الرواية والتراث السردية، المركز الثقافي العربي دار البيضاء، المغرب، 1992م، ص 93.

تاريخي في الرواية وإغراء أدبي في التاريخ⁽¹⁾. فالأديب يتعامل مع التاريخ، والمؤرخ أديب بمعنى ما، بدليل أننا نجد الكثير من المؤرخين العرب الذين اتصف عملهم بمنهجية ما وكانوا مع ذلك أدباء في أسلوبهم وفي كتاباتهم، (مثل المسعودي، وابن خلدون، وابن جبير، ...) فالعلاقة الجدلية بين التاريخ والأدب واردة رغم ما يكتنفها من غموض في بعض الأحيان، غير أنّ التاريخ كإغراء بالنسبة للأديب وخصوصا الروائي يظل قائما بصورة كبيرة وقوية، وأنّ التجاذب بين الطرفين يكمن في عنصر (التفاعلية) التي تشد أحدهما إلى الآخر. ونستنتج من ذلك أنّ العلاقة بين المؤرخ والأديب ثابتة وقد لا يكون بوجودة مبالغا كثيرا في هذا السبيل عندما اعتبر الروائي مؤرخا محتشما والمؤرخ أدبيا محتشما⁽²⁾، إذ من طبيعة التاريخ البحث عن الموضوعية في المقام الأول، وتجعل الموضوعية في مقام ثانوي.

وبما أنّ التاريخ علم قائم بذاته له قواعده وأصوله، فهو لم يعد ذلك السرد المبسط للأحداث، بل أصبح مجموعة من العلوم والمعارف النفسية والاجتماعية وغيرها تهدف إلى اكتشاف الحقيقة الثابتة وهذا لا يمنع الأديب أن يغير بعض الحقائق التاريخية أو يعدّل فيها، بدليل أنّ "وليام فولكنر" "William Faulkner" وهو كاتب وروائي تحدث في رواياته عن جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وحرب الانشقاق التي وقعت فيما بين الشمال والجنوب بكل أبعادها المختلفة⁽³⁾. فكان إذا تحدث عن الجنوب ربطه بقضية الزنوج، وبتلك الخادمة الزنجية المترهلة، وهي أبدا إما ممرضة أو خادمة ليس غير. وهذا في بداية هذا القرن، حتى قيل: إن جنوب الولايات المتحدة له. وهذا يؤكد أنّ الأديب قد يأتي بأشياء يجهلها حتى المؤرخ نفسه، كما أعلن عن ذلك "بلزاك" "Balzac"⁽⁴⁾. وفي

(1) ينظر: حوار مع (بوجدره)، أجراه صلاح الدين الأخضر، جريدة الشعب، الجزائر، عدد 7171، 5 نوفمبر 1986م، ص11.

(2) ينظر: حوار مع بوجدره، أجراه صلاح الدين الأخضر، جريدة الشعب، ص11.

(3) ولد في نيو إلباني بولاية ميسيسيبي في أمريكا الشمالية 1897، توفي في سبتمبر 1962.

ينظر: le petit robert des noms propres, éd, librairie de robert, paris, France, p 1227.

(4) بدأت هذه الحروب في 1861 ما بين الولايات الجنوبية التي كانت تحاول الانفصال عن باقي الولايات المتحدة، وذلك لممارسة العبودية التي كانت ولايات الشمال تسعى إلى إلغائها بالإضافة إلى الحفاظ على الولايات المتحدة، وقد وقع رئيس "أبرهام

هذا الصدد في مقدمة بعض أعماله حيث يقول: " أريد كتابة تاريخ التقاليد والعادات وغيرها مما أهمله المؤرخون"⁽¹⁾. فالروائي يستدعي الماضي أو التاريخ الذي يقوم على أساس الفن. ويقصد به توظيف رموز التاريخ والماضي وإسقاطهما على ما هو حادث وقائم في الحاضر، وهي وسيلة تهدف إلى توصيل فكرة ما بطريقة تعبيرية فنية. وبذلك يتجنب الروائي الأسلوب التقريري المباشر الذي يحوّل به التاريخ إلى رواية أو فن روائي بالاستعانة بأدوات ووسائل فنية قصد التشويق وخلق المتعة كي يوصل المعنى المقصود، أو كل ما يريد إيصاله إلى أكبر عدد ممكن من القراء، فالتاريخ على أساس هو رمز من الماضي السائد في الحاضر.

والروائي يتخذ من حاضره سلاحاً، فهو يزخر بمعارف وعلوم تبحث من يوظفها ويجسدها على أرض الواقع. وبعض الروايات الحديثة إن لم نقل إن معظمها تحاول أن تؤرّخ لحاضرها عبر زمنين اثنين:

- **الزمن الأول:** زمن الماضي التاريخي الذي تستعيد رموزه المختلفة وتمزجها بالحاضر الراهن من خلال قضية ما.

- **الزمن الثاني:** زمن الحاضر المعيش، حيث تؤرّخ للحياة اليومية ولعلاقات الناس فيما بينهم وهي بذلك تعكس وجهة نظر الروائي في القضية التي يعالجها. وهو سيتحضر التاريخ لهدفين:

1. إما لمحاولة تقديم هذا التاريخ، أو التعريف به على سبيل الإعجاب به.

2. وإما للاستعانة بالأبعاد الرمزية التي يتوفر عليها التاريخ العربي الإسلامي.

لنكولن "Abraham Lincoln" في 1863م قرار منح الحرية لجميع العبيد في الولايات المتحدة، وقد انتهت هذه الحرب في 1865م. ينظر غريال محمد شفيق وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، القاهرة، مصر، 1965م، ص 696، ص 697.

(1) ولد Onori de Balzac في تور بفرنسا في 1799م، وتوفي بها في 1850م، وهو كاتب وروائي.

والروائي له إمكانية توظيف التاريخ بطريقة مفتوحة وبحرية وتوغل. فهو يختار ثغرة تاريخية ومنها يفتح آفاقا جديدة للمؤرخ تجعله تلك الثغرة يتفطن إلى أمور كثيرة كان يجهلها⁽¹⁾. وقد وظف الروائي التاريخ بطريقة مفتوحة وقد تصرف في بعض أحداثه كما حاله، وهو حين يكتب الرواية يستعمل أحداثا تاريخية مضبوطة ويضيف إليها بعض المكونات الذاتية التي تعطي شيئا اسمه متعة النص⁽²⁾.

2- نشأة الروايات التاريخية:

تمهيد:

بدأت بالظهور في الحقبة التي ازدهر الاهتمام فيها بتأليف الروايات التاريخية وتعريبها، وروايات المغامرات والحب وإذا كان "البستاني" يعتبر أنموذجا للتأليف من بين عدد كبير دونه أهمية وتأثيرا، فإن عددا وافرا من الروايات التاريخية الأجنبية كانت قد بدأت بالظهور معربة إبان تلك الفترة، من ذلك أنّ تعريبين متتاليين لرواية "الكونت دي مونت" لـ"إسكندر دوماس" "Alexandre Dumas"، ظهر الأول الذي قام به "سليم صعب" في عام 1866م، في بيروت والثاني في القاهرة قام به "بشارة شديد" في سنة 1871م، وبعد عشر سنوات فقط، عرب "قيصر زينة" رواية دوماس الأخرى "الكونت دي مونغوميري" وصدرت في القاهرة مسلسلة في جريدة الأهرام خلال عام 1881م، ثم رواية "الفرسان الثلاثة" في أربعة أجزاء بتعريب "نجيب حداد"، ظهرت في القاهرة عام 1888م هذا فضلا عن روايات أخرى كثيرة لـ"فولتير" و"فينلون"، و"شاتوبريان"، و"سكوت" وغيرهم⁽³⁾. وهذا الأمر كان مثار اهتمام "جورجي زيدان"، فقد أورد رصد الظاهرة الإقبال على التعريب الروائي في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية"، و مما قال فيه إنّ معاصره " قد أكثروا من نقل الكتب عن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وهي تسمى في اصطلاح أهل هذا الزمان "روايات". والروايات

(1) ينظر: من محاضرة لرشيد بوجدره، توظيف التاريخ في الرواية، عرض: الطاهر دحماني، المساء، الجزائر، العدد 5، 345، نوفمبر 1986م، ص 10.

(2) ينظر: سعيد سلام، التناسل التراثي - الرواية الجزائرية أنموذجا - عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص 183، ص 184.

(3) ينظر: عبد الله إبراهيم، الرواية العربية: السرد والدلالة، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، ع 1، 2005، ص 62، ص 63.

المنقولة إلى العربية في هذه النهضة لا تعد ولا تحصى، وأكثرها يراد بها التسلية، ويندر أن يراد بها الفائدة الاجتماعية أو التاريخية أو غيرها⁽¹⁾. وما أن ينتهي من رصد ذلك إلا وينتقل إلى وصف الكيفية التي تلقى بها القراء العرب تلك الروايات دون أن ينسى الفرق بينها والمرويات السردية العربية قائلًا: "رَحِب قراء العربية العقلاء بهذه الروايات لتقوم مقام القصص التي كانت شائعة بين العامة لذلك العهد مما ألفه العرب في الأجيال الإسلامية الوسطى، نعني قصة علي الزبيق، وسيف الدين بن ذي يزن، والملك الظاهر. فضلا عن القصص القديمة كعنترة، وألف ليلة، فوجدوا الروايات المنقولة عن الإفريقية أقرب إلى المعقول مما يلائم روح العصر"⁽²⁾. فقد اكتسحت المعربات التاريخية عالم السرد العربي الحديث في الحقبة التي كان "جورجي زيدان" منهمكا في تاريخياته، وبخاصة روايات "دوماس الأب" التي ركز فيها على تاريخ فرنسا، هادفا من ذلك إلى جذب القراء الذين كانوا يجهلون أشياء كثيرة عن تاريخ بلادهم بعد أن تعربت بوصفها إحدى الدول الأوروبية الكبرى. لكن "جورجي زيدان" الذي شغف بهذه السرود التاريخية التي تهدف هي الأخيرة إلى تأسيس وعي بالماضي، كان يريد من وظيفة هذه السرود أن تحقق الهدف نفسه كما تقرر في تاريخيات "دوماس" و"سكوت" فقط بأسلوب مختلف⁽³⁾.

3-جورجي زيدان والكتابة التاريخية -السردية:

ظهرت تاريخيات "جورجي زيدان" لتقدم أول سلسلة، شبه متكاملة تقوم على تمثيل سردي تاريخي للأحداث العربية والإسلامية منذ العصر الجاهلي إلى الانقلاب العثماني في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، وعلى الرغم من أن العمر لم يسعف "جورجي زيدان" بإكمال السلسلة، فظلت بعض العصور دون تغطية. إلا أنه كان يعلن باستمرار أنه في سبيله لإعادة تفرغ التاريخ العربي - الإسلامي من مظانه الكبرى والمعقدة وتقديمه مبسطا ومتاليا. ومن أجل شد الانتباه كان يخلق قصة

(1) جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، القاهرة، 1914م، ص 230.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) ينظر: عبد الله إبراهيم، الرواية العربية، السرد والدلالة، ص 63.

حب، أو ينتزع من ذلك التاريخ حكاية ليجعلها الوسيلة التي بها يستكشف الوقائع التاريخية⁽¹⁾. ولهذا كان يشير دائما وبإلحاح، وفي معظم رواياته، إلى أنه ينتقل إلى مرحلة، بعد أن فرغ من تقديم أخرى، بحيث يبدو التصميم والقصدية واضحين، وما الحكاية إلا وسيلة لإثارة الإهتمام، كان يذكر المصادر الأصلية التي يستعير منها الأخبار التاريخية منها. وبعد أن أتم سبع روايات تاريخية وجد أنه من اللازم عليه تقديم تفسير لطبيعة الكتابة التاريخية - السردية لديه، وبذلك فقد استنبط القانون العام الذي سار عليه والذي سيسير عليه إلى النهاية، جاء ذلك عام 1902م في المقدمة المهمة التي وضعها كمدخل لرواية "الحجاج بن يوسف الثقفي"⁽²⁾. وبيّن فيها وظيفة الرواية التاريخية عنده، ووظيفتها عند الكتاب الأوربيين، ووظيفة الحكاية السردية داخل النص، وأخيرا كشف النقطة الأساسية في كل مشروعه الروائي، وهي إعتبار رواياته مرجعا شأنها شأن كتب التاريخ، قال: "رأينا بالإختبار أنّ نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته، والاستزادة منه، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لاهي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج. وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة، فجزّه ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء. وأما نحن فالعمدة في روايتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، ندمج فيها قصة غرامية. تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصح الإعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الإعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة"⁽³⁾.

فمن الواضح أن الفوارق الدقيقة بين التاريخ كخطاب موضوعي، والسرد كفن لتشكيل الأحداث كانت ملتبسة في ذهن "جورجي زيدان" فلم يكن يظن أنه بوساطة السرد سينزلق ترتيب

(1) ينظر: براهيم السعافين، تطور الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام، ص 63.

(2) ينظر: جورجي زيدان، الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الهلال، القاهرة، 1950، المقدمة.

(1) جورجي زيدان، الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الهلال، القاهرة، 1950

الأحداث ودلالاتها إلى سياق غير سياقها، وإعادة تشكيلها سرديا لن يحافظ بأي شكل من الأشكال على أبعادها الموضوعية، ولهذا فإن جوهر عمل "جورجي زيدان" الملتبس هذا سينتهي به إلى الإنقسام على نفسه فهو في الوقت الذي يريد أن يجعل التاريخ حاكما على الرواية، فإنه لم يأل جهدا في بث المواعظ الاعتبارية المتعددة الأبعاد والأغراض في تضاعيف رواياته، وبذلك كان يستخلص عبرة، فالتاريخ غادر ميدانه كسلسلة وقائع، وأعيد تركيبه ليكون مصدر عبرة، في حين يريد هو أن يكون مرجعا⁽¹⁾.

قائمة المصادر والمراجع:

1- باللغة العربية:

1. سعيد سلام، التناص التراثي - الرواية الجزائرية أنموذجا - عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.
 2. سعيد يقطين، الرواية والتراث السردية، المركز الثقافي العربي دار البيضاء، المغرب، 1992م.
- الروايات:

2. جورج زيدان، الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الهلال، القاهرة، 1950

- الجرائد:

1. من محاضرة لرشيد بوجدرة، توظيف التاريخ في الرواية، عرض: الطاهر دحماني، المساء، الجزائر، العدد 5، 345، نوفمبر 1986م.
 2. حوار مع (بوجدرة)، أجراه صلاح الدين الأخضر، جريدة الشعب، الجزائر، عدد 7171، 5 نوفمبر 1986م.
- المجالات:

(2) ينظر: عبد الله إبراهيم، الرواية العربية: السرد والدلالة، ص 64.

1. فؤاد المرعي، مدارات التاريخ في الرواية السورية، مجلة البيان، الكويت، العدد 351، 1999
2. عبد الله إبراهيم، الرواية العربية: السرد والدلالة، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، ع1، 2005.

-القواميس:

1. ابن منظور، لسان العرب، مجلد 3، دار صادر، بيروت، لبنان.

-باللغة الفرنسية:

64. -le petit robert des noms propres, éd, librairie de robert, paris, France.